المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: غزوة الخندق
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
BATTLE OF THE TRENCH
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

غزوة الخندق (٨ ذي القعدة سنة ٥ للهجرة):

إن نجاح الرسول ρ في احتواء الآثار السلبية لمعركة أحد، وقدرته على توحيد الجبهة الداخلية في المدينة تحت قيادته، ومد نفوذ دولة المدينة بين القبائل العربية وبخاصة تلك القبائل التي تقع مواطنها على طرق تجارة القوافل بين مكة وبلاد الشام مع استمرار سياسة الحصار الاقتصادي على قوافل قريش قد حمل القوى المضادة لدولة المدينة على التحالف من أجل شن حرب تستهدف القضاء على هذه الدولة.

وتشير المصادر إلى أن زعماء بني النضير الذين أجلاهم الرسول ρ عن المدينة قد أخذوا زمام المبادة في الدعوة إلى هذا التحالف، تحركهم عوامل الحقد والرغبة في الانتقام من المسلمين، إن هؤلاء الزعماء هم الذين حزبوا الأحزاب على الرسول ρ فذهبوا إلى مكة، فدعوا قريشا إلى حرب رسول الله ρ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، ثم ذهبوا إلى قبيلة غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ρ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

ويبدو أن استجابة قريش لتحريض اليهود قد تمت بسرعة وحماسة، لأن قيام مثل هذا التحالف لمحاربة الرسول ρ كان يتفق مع مصالحهم وسياستها المعلنة، أما استجابة غطفان وهي قبيلة بدوية ليست لها مصالح تجارية مع قريش فيظهر أن سببها كان الرغبة في الحصول على الغنائم، فقد قال عيينة بن حصن زعيم غطفان: إنا والله ما جئنا ننصر قريشا. ولو استنصرنا قريشا ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها. ولكنى كنت أطمع أن تأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة.

وهكذا فقد نشأ تآلف هش تمليه عوامل الحقد والمصالح المؤقتة بين يهود بني النضير وقريش وغطفان ومن تبعهم على محاربة دولة المدينة، غير أن مما يدعو للاستغراب والتساؤل أنه حينما تشكلن الحملة العسكرية واتجهت إلى المدينة للحرب لم يكن بينها أي وجود لليهود بين المقاتلين، ولم يذكر سوى أحد زعماء بني النضير وهو حيي بن أخطب الذي عمل على إقناع بني قريظة على نقض عهدهم مع الرسول ρ، فعل اقتصر دور بني النضير على التحريض على قتال رسول الله ρ دون المشاركة فيه؟

لقد استطاعت قوى الأحزاب المتآلفة على تشكيل جيش لمحاربة الرسول ρ مؤلف من عشرة آلاف مقاتل، ساهمت قريش وحلفاؤها بأربعة آلاف مقاتل، وساهمت بطون قبيلة غطفان الثلاثة بألف مقاتل قدمتها فزارة، وأربعمائة قدمتها أشجع وأربعمائة أخرى قدمتها مرة، وساهمت قبيلة سليم بتقديم سبعمائة مقاتل، ولم يذكر عدد المقاتلين الذين ساهمت بهم قبيلة أسد.

وحين بلغت أخبار تحرك جيش الأحزاب نحو المدينة للقتال إلى الرسول ρ قام بدعوة أصحابه لمشاورتهم فيما يصنع، وكان رسول الله ρ يكثر مشاورتهم في الحرب، فقال: أنبرز لهم من المدينة، أم نكون فيها ونخندقها علينا، أم نكون قريبا ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل؟ فاختلفوا... فقال سلمان: يا رسول الله، إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين. فأخذ به الرسول ρ، وباشر بحفر الخندق.

ولم تكن المدينة بحاجة إلى حفر خندق للدفاع عنها من جميع جهاتها، لأن المناطق الجنوبية والغربية كان تكثر فيها الوديان والمزارع ويجري وراءها وادي العقيق، فيكون خطا دفاعيا، أما الجهات الشمالية الشرقية فكانت وعرة، وفيها جبل أحد، لذا فلم تكن ثمة حاجة لحفر الخندق إلا من الجهة الشمالية الغربية من المدينة التي كان يسهل على الأعداء اختراقها، فأمر الرسول ρ أصحابه بالإسراع في حفر الخندق فيها، حيث قسم العمل عليهم، وكان يشاركهم فيه بنفسه من أجل إثارة حماستهم للعمل حتى تم الانتهاء منه في خلال ستة أيام.

لقد استطاع الرسول ρ أن يحشد لمواجهة الأعداء في هذه المعركة ثلاثة آلاف مقاتل، حيث عسكر معظمهم خلف الخندق للدفاع عن المدينة، كما استفادوا من متاعة جبل سلع لحماية جناحهم الأيسر من التفاف العدو، وأقاموا عليه مركزا للرسول ρ لمراقبة الموقف وتوجيه القتال.

ووضع الرسول ρ النساء في آطام الأنصار لأنها قلاع منيعة يسهل الدفاع عنها، وبذلك أمن الوضع الداخلي في المدينة، ضد محاولات الاختراق.

وقد فوجئت قوات الأحزاب بخطة المسلمين الدفاعية حين وصولها وبخاصة الخندق الذي لم يكن مألوفا استخدامه في جزيرة العرب، وقالوا هذه مكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها، ومن ثم فقد اضطروا إلى أن يقيموا خارج المدينة، ثم أخذ فرسانهم يجولون حول الخندق عسلا أن يعثروا على ثغرة يستطيعون النفاذ منها للهجوم على المدينة، غير أن عيون المسلمين كانت يقظة فلم تفسح لهم المجال في ذلك، يقول الواقدي: كان أسيد بن حضير يحرس الخندق في أصحابه، فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفره الخيل، فإذا طليعة من المشركين، مائة فارس أو نحوها، عليهم عمرو بن العاص يريدون أن يغيروا إلى المسلمين، فقام أسيد بن حضير عليها بأصحابه، فرموهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوا عنا وولوا.

وهكذا فقد مضت أيام الحصار التي بدأت في ٨ ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، واستمرت خمسة عشر يوما.

لقد كان أصعب ما في هذه الحرب هو القلق والترقب والانتظار الذي ساد أجواء كلا المعسكرين المتحاربين، فقد كان المشركون في وضع غير مريح عسكريا، إذ كانت الأرض جرداء خالية من الزروع، وكان المناخ باردا وعاصفا، ومن ثم فقد عانت قواتهم من قلة المؤونة وشحتها وبخاصة ما تحتاجه خيولهم وجمالهم من أعلاف، وكادت إبلهم تهلك من الهزال، وكانت المدينة ليالي أقاموا جديبة.

إن ما تقدم يشير إلى أن توقيت الحملة بالنسبة للمشركين كان خاطئا، إذ كان عليهم أن يختاروا الوقت الذي تتوافر فيه الأعشاب لرعي حيواناتهم والمناخ المناسب لصمود قواتهم.

ويلاحظ أن معاناة المسلمين من العوامل الآنفة الذكر ربما كانت أقل من المشركين بحكم قربهم من ديارهم، إلا أن الروايات التي وصلت تؤكد أن معاناتهم هم كذلك من هذا العامل لم تكن بالقليلة، يقول حذيفة بن اليمان: لقد رأيتنا في الخندق مع رسول الله ρ في ليلة شديدة البرد، قد اجتمع علينا البرد والجوع والخوف... .

لقد كان أبرز العوامل التي أقلقت المسلمين وأخافتهم هي ما وصل إليهم من احتمال غدر يهود بني قريظة بهم، لأن ذلك قد يؤدي إلى انهيار الجبهة الدفاعية من الداخل، وتمكين المشركين من دخول المدينة.

فقد ذكرت المصادر أن الأحزاب حاولت إقناع زعماء بني قريظة بنقض عهدهم مع الرسول ρ والانضمام إلى المشركين، وقد استطاع حيي بن أخطب أحد زعماء بني النضير من تحقيق هذا الهدف في أواخر أيام الحصار، غير أن الرسول ρ أفلح في شل مفعول هذا الأمر حينما استطاع أن يزرع بذور الشك وعدم الثقة بين الأحزاب وبين قريظة بوساطة نعيم بن مسعود من غطفان، الذي كان قد أسلم ولم يعلن إسلامه، حيث ذهب إلى قريظة بناء على توجيه الرسول ρ له وقال لهم: لا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكون بأيديكم ثقة لكم. ثم ذهب إلى قريش وإلى قومه من غطفان، وأخبرهم أن بني قريظة قد ندموا على نقضهم للعهد مع الرسول ρ وأنهم سيطلبون منهم أن يسلموهم عددا من أشرافهم رهائن مقابل اشتراكهم في القتال، من أجل تسليمهم إلى الرسول ρ لقتلهم، فلما فعلت بنو قريظة ذلك قال زعماء الأحزاب قد صدق نعيم، وبذلك انهارت أسس التعاون بين اليهود والمشركين، ومن ثم لم يبق من خيار أمام الأحزاب سوى الانسحاب أو المجازفة بهجوم قد تكون خسائره فادحة على قواتهم بسبب عدم ملائمة الظروف.

ويلاحظ أن موقف قبيلة غطفان كان قلقا في أثناء الحصار، لذا فقد حاول الرسول ρ إغراءها بتقديم ثلث ثمار إذا انسحبت من الحصار، وكادت تستجيب لذلك، ولكن سعد بن عبادة وسعد بن معاذ من زعماء أهل المدينة لم يوافقا على ذلك.

لقد فضل زعماء الأحزاب الانسحاب على المجازفة بحرب غير مضمونة النتائج تكلفهم خسائر كبيرة، وذلك لأن دوافعهم للقتال لم تكن قوية، فقد لاحظنا أن غطفان وحلفائها قد شاركت في هذه الحملة من أجل الحصول على الغنائم، كما أن قريشا قد سبق لها أن أخذت ثأرها في معركة أحد، فلماذا تجازف في خوض هذه المعركة؟

وهكذا فقد انتهت هذه الحملة التي هي أكبر حملة وجهها المشركون على دولة المدينة بالفشل، ولم يستطيعوا بعدها القيام بأية حملة لمهاجمة دولة المدينة، فكانت غزوة الأحزاب خاتمة المطاف بالنسبة لجهود مكة العسكرية، وقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول ρ استشعر هذه الحقيقة في حينها، فقال حين انصرف أهل الخندق عن الخندق: لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم.

لقد كان فشل الأحزاب في غزو المدينة بمثابة إعلان أنه لم تعد ثمة قوة في بلاد الحجاز أقوى من دولة المدينة، ومن ثم فقد أصبح من الواجب على هذه الدولة أن تتصرف على وفق هذه الحقيقة، وبات على القوى والقبائل كافة الموجودة في الحجاز أن تستوعب هذا الواقع وتتعامل معه بالشكل الصحيح.

حصار المسلمين لبني قريظة:

لم يكن باستطاعة الرسول ρ التسامح مع يهود بني قريظة بعد أن نقضوا عهدهم في أحرج لحظة من تاريخ المدينة، وكادوا أن يتسببوا في القضاء عليها، لذا ما كادت الأحزاب تنسحب عن المدينة حتى طلب من رجاله أن يتوجهوا إلى بني قريظة لمحاربتهم، فأمر مؤذنا فأذن في الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة. وهكذا فقد توجه المسلمون الذين كانوا يدافعون عن المدينة فور انسحاب الأحزاب إلى محاصرة بني قريظة، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة.

وقد استمر حصار المسلمين لبني قريظة خمسا وعشرين ليلة كما يقول ابن إسحاق دون أن يصدر عنهم ما يدل على وجود نية أو عزيمة للقتال.

وقد حاولوا إقناع الرسول ρ بأن يعاملهم كما عامل يهود بني قينقاع أو يهود بني النضير غير أن الرسول ρ أصر على أن يستسلموا دون قيد أو شرط، وأخيرا وافقوا على الاستسلام على أن يحكم في مصيرهم سعد بن معاذ من زعماء الأوس، لأنه كانت تربطه بهم علاقات تحالف قديمة، فوافق الرسول ρ على طلبهم وترك لسعد بن معاذ أن يحكم فيهم.

وقد حاول اليهود وكذلك بعض المسلمين من قبيلة الأوس استعطاف سعد بن معاذ والتأثير فيه للحكم عليهم حكما مخففا، غير أن سعد الذي كان يعاني من جرح قاتل أصابه في أثناء حصار الخندق والذي كان ناقما على يهود بني قريظة لغدرهم وسوء استقبالهم له حينما حاول إقناعهم بالمحافظة على عهدهم مع الرسول ρ أجابهم بقوله: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، ثم قال: بأن أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الثالث

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الثالث

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الثالث

الطبقات الكبرى: ابن سعد

السير والمغازي: ابن إسحاق

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح